منشورات بتانة
سيرة
وجوه
تطل من مرايا الروح
قراءة في سير ذاتية مصرية وعربية
عزمي عبد الوهاب

د. رءوف عباس فى موعد مع الرئيس

سجل الكاتب والمؤرخ رءوف عباس سيرته الذاتية بكل ما فيها من إيجابيات وسلبيات، تحت عنوان "مشيناها خطى" وهذه السيرة مليئة بالأحداث، وفيها من التعاريج أكثر مما فيها من الاستقامة والوضوح، بمعنى آخر لم تكن الطرق ممهدة، خالية من العثرات إلا نادرا، كما لم يكن بين يديه دليل يحدد خطواته على تلك الطريق، فكان عليه أن يقطعها بما حباه الله من خصائص، جمعت بين العناد والإصرار والصبر، فاقت فى حجمها أحاسيس الإحباط والعجز وخيبة الأمل.

تجربة د. رءوف عباس تروى حكاية التحول الاجتماعى فى مصر، فى نصف القرن الأخير من القرن العشرين، كما تلقى أضواء كاشفة على بدايات تجربة القطاع العام والجامعة والعمل الأهلى، وهى النقاط التى عبر بها طريق حياته، ولم يكن مراقبا لثورة يوليو 1952، بل كان من صنائعها، وواحدا من جماهيرها، وهو إذ يروى حكاية لا يتقيد إلا بما رآه وسمعه وعاشه، وكان شاهد عيان عليه، دون مبالغة فى الوصف، أو تزيين أو تزييف، التزاما منه بأمانة الكلمة مهما كانت دلالتها ومهما كان وقعها.

تبدأ السيرة بفصل عنوانه "على شط القناة" وفيه يقول د. عباس : "وُلِدَ صاحبنا فى الرابع والعشرين من أغسطس 1939 فى أحد مساكن عمال السكة الحديد ببورسعيد" ويقول أيضا: "ولد صاحبنا لأسرة فقيرة شأنها شان السواد الأعظم من المصريين عندئذ، كان والده عاملا بالسكة الحديد، يشغل أدنى درجات السلم الوظيفى الخاص بالعمال".

وُلِدَ عباس فى هذا الموقع بالذات، فى ظروف أزمة دولية، أشعلت نار الحرب العالمية الثانية، ومع ارتحال الوالد خلف عمله من محافظة لأخرى، تأثر د. عباس تأثرا شديدا، لكنه منذ أواخر عام 1943 عاش بالقاهرة مع جدته لأبيه، وكان الأب يحس بالذنب تجاهها لتركه لها، حين كان يعمل فى محافظة القليوبية، وضمن المناطق التى عاش فيها د. عباس" عزبة هيرمس" وكان سكانها فى معظمهم من أهل الريف الذين نزحوا إلى القاهرة، طلبا

للرزق، وفرارا من الفقر إلى البؤس والشقاء، وكان هؤلاء السكان موزعين بالتساوى بين الإسلام والمسيحية.

كانت "عزبة هيرمس" هى "مصر الصغرى" وكان لهذه البيئة الشعبية الفقيرة البائسة أبلغ الأثر فى تكوين د. عباس، فقد عاش بها حتى العام 1954، عندما قرر والده أن ينقله من مدرسة شبرا الثانوية إلى مدرسة طوخ الثانوية بسبب رسوبه فى الفرقة الأولى، لكنه عاد إليها عام 1957 عندما التحق بالجامعة.

كان من المفترض أن يتوقف تعليم د. رءوف عباس عند هذا الحد، لأن إمكانات الأب المالية لا تستطيع أن تفى بنفقات الالتحاق بالجامعة، خصوصا أن البلاد كانت تمر بفترة ركود اقتصادى، ولم تكن هناك وظائف متاحة بالحكومة، وحين سال الوالد كل معارفه بالسكة الحديد، للبحث عن فرصة عمل، لم يقدر له النجاح، ونصح البعض د. عباس بتقديم أوراقه إلى مكتب التنسيق، قبل أن يغلق أبوابه فتضيع الفرصة من يده ربما إلى الأبد، ويمكنه مواصلة البحث عن عمل أثناء الدراسة.

يقول د. عباس: "بات ليلته فى عزبة هيرمس فلم يطرق النوم جفونه إلا قبيل الفجر، فقد انتابته الهواجس طوال الليل، ألا يعنى تقديم أوراقه غدا لمكتب التنسيق توريطاً لوالده العاجز عن تدبير ضرورات الحياة لأسرته، وما فائدة التقدم للجامعة وهو يعلم أن مصروفاتها بعيدة عن متناول أيدى أمثاله من أبناء الفقراء، حتى لو حصل على عمل فلن يتجاوز راتبه عشرة جنيهات فكيف يساعد والده ويعيش ويغطى نفقات دراسته فى الجامعة؟".

التحق د. عباس بكلية الآداب جامعة عين شمس، وقبل الأب بالأمر الواقع، بعد وساطات عديدة، وحرص هو على ألا يكلف أباه اكثر مما يطيق، فكان يمارس بعض الأعمال فى إجازة الصيف، يوفر منها مبلغا، يكفى احتياجاته فى الدراسة، كان يريد أن يكون عالم آثار، ولذا التحق بقسم التاريخ والآثار، لكله علم بعد فترة أن شعبة الآثار لم تفتح بعد، فاستقر رايه على ان يتخصص فى التاريخ القديم.

تخرج د. عباس فى الجامعة، وازداد حال الأسرة بؤْسا فى وقت أصبح ينتظر فيه أن يلعب دورا إيجابيا لمساعدتها، وتم تعيينه فى "المؤسسة العامة للصناعات الكيماوية" وكان هذا

التعيين قد فتح صفحة جديدة فى حياته، وبعث عنده وأسرته الآمل، فقد زوده العمل فى شركةْ صناعية من الشركات التى تم تأسيسها فى يوليو 1961 بتجارب وخبرات جديدة، كان لها أثرها فى تكوينه، بل وفى تحديد حقل دراسته العليا، التى بدأها عام 1962.

أنهى عباس السنة التمهيدية للماجستير بتقدير جيد جدا، وكان عليه أن يختار موضوعها، وحسمت التجربة التى عاشها بين عمال كفر الزيات اختياره، فقد لاحظ أن أولئك العمال الذين نجحوا فى إسقاط اللجنة النقابية، وراءهم خبرة نضالية لم تأت من فراغ، وراح يبحث عن كتاب فى تاريخ الحركة النقابية فى مصر، فلم يجد سوى كتابات لا تغنى ولا تسمن من جوع، فعقد العزم على دراسة الحركة العمالية منذ نشأتها حتى قيام ثورة يوليو 1952.

عمل عباس معيدا بجامعة القاهرة، بعد معاناة كبيرة، وحصل على درجة الدكتوراه بمرتبة الشرف الأولى، وهنا يقول: "بعد سبعة شهور من الحصول على الدكتوراه عين مدرسا، ولم يتخذ القرار إلا بعد عودة محمد أنيس من الإعارة، وظل منبوذا حتى سفره إلى اليابان فى مهمة علمية، فكان نصيبه من أعباء التدريس مادة واحدة "تاريخ مصر الحديث" لطلبة ليسانس المكتبات، وعندما عاد من اليابان قام بتدريس نفس المادة الواحدة مدة عامين، حتى أعير إلى قطر، ولم ينل فرصة كاملة للتدريس بالقسم إلا بعد عودته من الإعارة، وكان قد اصبح أستاذا مساعدا".

يرى د. عباس أن عبد الناصر كان منحازا انحيازا تاما للفقراء، وقدم لهم من المنجزات ما لم يتحقق فى تاريخ مصر من قبل ومن بعد، لكنه كان شديد الحذر فى الاعتماد السياسى على الجماهير، وتنظيمها سياسيا ومشاركتها فى صنع القرار، مكتفيا بما له من شعبية عندها، وهى وحدها لا تكفى لحماية النظام وقت الخطر، وهى نفسها الثغرة، التى نفذ منها السادات، لتصفية ثورة يوليو، وإهدار إنجازاتها التنموية، وإثارة مناخ التعصب الدينى الناجم عن إفساح الساحة أمام التيار الإسلامى الرجعى، الذى عرض الوحدة الوطنية للخطر.

مع ذلك لم يقدر للدكتور رءوف عباس الاحتكاك بأهل السلطة إلا فى عهد السادات، وكانت نتيجة ذلك الاحتكاك سلبية، فبعد عودته من قطر، وذات صباح فى نوفمبر 1978 تلقى مكالمة تليفونية، قدم له المتحدث نفسه على انه من رئاسة الجمهورية وأخبره بأنه مكلف

بحضور اجتماع بعد غد له صفة السرية، وأن عليه أن يحضر معه ما يكفيه من ملابس لمدة ليلتين أو ثلاث ليال، وعندما قال د. عباس لمحدثه إنه قد لا يتمكن من الحضور لمشاغل وارتباطات أخرى، قال محدثه :" إن التعليمات التى لديه عدم قبول أى اعتذار وانتهت المكالمة.

وكان الموعد فى معهد الدراسات الاشتراكية بمصر الجديدة، وبعد نصف ساعة من وصول الجميع إلى المكان دخل السادات وكان يريد أن تقام دورات تثقيفية للشباب فى "معهد الدراسات الوطنية" وقد اختار هؤلاء الأساتذة ليكونوا أعضاء هيئة التدريس بالمعهد، وعلى حد تعبير د. عباس فإنه "قد نجا من ورطة التعاون مع نظام السادات" لكنه واجه مآزق عديدة، ربما عندما استدعاه عميد الكلية، ليقول له:" السيدة جيهان السادات عاوزة تشوفك" وفى اليوم المحدد عندما دخل إلى مكتب العميد، كانت هناك فتاة سمراء نحيفة القوام قدمها له العميد على أنها السيدة نهى السادات، ثم قال له إن ابنة السادات تدرس الماجستير بالجامعة الأمريكية، وأنها تعد بحثا عن حزب الوفد، وأنها بحاجة إلى استشارة أستاذ متخصص، والجامعة الأمريكية ليس فيها من يمكن اللجوء إليه، فشكرها وعرض عليها أسماء أساتذة آخرين، واعتذر لها، وبعد نحو ساعتين من انصرافه من الغرفة قال له العميد: إن اختيارها لك يعود إلى أنك الوحيد الذى له كتابات بالإنجليزية وأنها فى حاجة إلى من يكتب لها البحث".